﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: 106]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا حذَّرَ اللّهُ المؤمنينَ من الوقوعِ في مَغبَّةِ التَّفرُّقِ والاختلافِ، كما وقعَ من أهلِ الكتابِ وغيرِهم؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُبيِّنَ حالَ وُجوهِ الفريقيْنِ من أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ يومَ القيامةِ وصِفتهم، بادئًا بالفريقِ الثَّاني.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: "ذَوَقَ: الذَّالُ والواوُ والقافُ: أَصْلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشَّيءِ من جهةِ تَطَعُّمٍ، ثمَّ يُشتَقُّ منه مجازًا، فيُقالُ: ذُقْتُ المأكولَ أَذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عندَ فلانٍ: اختبرتُه، ويُقالُ: كلُّ ما نزَلَ بإنسانٍ من مكروهٍ؛ فقدْ ذاقَه، ويُقالُ: ذاقَ القَوْسَ؛ إذا نَظرَ ما مِقْدارُ إعطائِها؟ وكيفَ قُوَّتُها؟"[1].

وهكذا هنا ذوقُ العذاب، هو من بابِ المجاز، وأيُّ مكروهٍ أَشَدُّ وَطْئًا من العذابِ الَّذي سيذوقُه الكفَّارُ يومَ القيامة؟!

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ الكريمةُ إخبارٌ من اللّهِ سُبحانَه وتعالى عن حالِ فريقي الإيمانِ والكُفْرِ يومَ القيامةِ بذِكْرِ بياضِ وُجوهِ المؤمنينَ، وسَوادِ وُجوهِ الكافرين الَّذين سيذوقونَ عذابَ النَّار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجوهُ الإعراب، والأخذُ بظاهرِ النَّص، وأثرُ ذلكَ في تجليةِ المعنَى:

في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ وَجْهان جائزان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).

الأوَّلُ: أنْ يكونَ منصوبًا على أنَّه ظرفٌ للاسْتقرارِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾، أي: لثبوتِ العذابِ العظيمِ لهم، أي: لهم عذابٌ كائنٌ أوْ مُستقِرٌّ.

الثَّاني: أنْ يكونَ مفعولًا لِمُضْمَرٍ، خُوطِبَ به المؤمنونَ تحذيرًا لهم عن عاقبةِ التَّفرُّقِ بعدَ مجيءِ البيِّنات، وترغيبًا في الاتِّفاق على التَّمسُّكِ بالدِّين، أي: اذكُروا يومَ تبيَضُّ وُجوه.

وجُملةُ: ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ صفةٌ لـ ﴿يَوْمَ﴾ على تقدير: تبيَضُّ فيه وُجوهٌ، وتسودُّ فيه وُجوه.

وبياضُ الوجوهِ وسوادُها: كنايتانِ عن ظهورِ بهجة السُّرور، وكآبةِ الخوف فيه[1].

ويمكنُ أن يكون البياض والسَّوادُ حقيقيَّين، يُوسَمُ بهما المؤمنُ والكافرُ يومَ القيامة، وهما بياضٌ وسوادٌ خاصَّان؛ يعني أنَّهما يُناسبانِ أحوالَ الآخرة، ولا داعيَ لصرفِه عن حقيقته، وهو الأصلُ في حَمْلِ النُّصوصِ على ظاهرِها إلَّا إذا دَلَّ دليلٌ على خلافِه، ولا دَليل.

أفادَ السِّياقُ القرآنيُّ حقيقةَ بياضِ الوجوه وسوادِها يومَ القيامة، وضرورةَ الاستعدادِ لذلكَ اليوم

بلاغة تنكير ﴿وُجُوهٌ﴾:

وتنكير ﴿وُجُوهٌ﴾ في الموضعين: إمَّا للتكثير أو التَّعميم في الموضعين، وإمَّا للتَّعظيم مع ﴿ٱبْيَضَّتْ﴾، والتحقير مع ﴿ٱسْوَدَّتْ﴾.

النَّشرُ، والاستفهامُ، والمجازُ، وأثرُ ذلكَ في تجليةِ المعنَى:

في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: هذا البيانُ الكريمُ تفصيلٌ لأحوالِ الفريقَيْن بعدَ الإشارةِ إليهما إجمالًا، وهو جارٍ فيه بطريقِ النَّشْرِ المعكوس، حيث بدأَ بذكرِ الفريقِ الثَّاني، ثمَّ الأوَّلِ على عكسِ ما تقدَّم، وهو من أساليبِ البلاغةِ الضَّافية، والمقامُ هنا مُقامُ

أفادَ نظمُ السِّياقِ القرآنيِّ التَّحذيرَ من التَّشبُّه بالكافرينَ والتَّعجيبَ من حالِهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530 - 531.

التَّحذيرِ عن التَّشبُّه بهم معَ ما فيه من الجمعِ بين الإجمالِ والتَّفصيلِ والإفْضاءِ إلى خَتْمِ الكلامِ بحُسْنِ حالِ المؤمنين، كما بُدِىء بذلكَ عندَ الإجمال[1].

والفاء عاطفة تعقيبيَّة، و﴿فَأَمَّا﴾ للتَّوكيد والتَّفصيل، وفي هذا الأسلوبِ تَشْريفٌ لذلكَ اليومِ بذكرِ بياضِ وُجوهِ المؤمنينَ الَّذي هو شِعارُ أهلِ النَّعيم، فهو يومُ ظُهورِ رحمةِ اللّهِ ونعمتِه وفرحِ المؤمنينَ به، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، ورحمةُ اللّهِ سبقتْ غضبَه ﷻ.

وفي ذكرِ سِمَةِ أهلِ النَّعيم عَقِبَ وعيدِ العذابِ حَسْرةٌ على أهلِ العذاب، إذْ يعلمُ السَّامعُ أنَّ لهم عذابًا عظيمًا في يومٍ فيه نعيمٌ عظيم، فيزدادُ ثُبورًا على ثُبور، ثم قُدِّمَ في التَّفصيلِ ذِكْرُ سِمَةِ أهلِ العذابِ تعجيلًا بمُسَاءَتِهم.

وقولُه تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ هو على إرادةِ القول، وهو ما يُسمَّى بِمَقُولِ القَوْل؛ أي: فيُقالُ لهم ذلك.

والاسْتفهامُ لا يَصْدُرُ إلَّا من مُسْتَفْهِمٍ، وذلكَ القولُ هو جوابُ ﴿فَأَمَّا﴾؛ ولذلكَ لم تَدْخُلِ الفاءُ على ﴿أَكَفَرْتُم﴾ ليَظهر أنْ ليس هو الجوابُ، وأنَّ الجوابَ حُذِف بِرُمَّته[2].

وقائلُ هذا القولِ مجهول؛ إذْ لم يتقدَّمْ ما يَدُلُّ عليه، فيُحتملُ أنَّ القائلَ هم أهلُ المَحْشَر لهم، وهُمُ الَّذين عَرفوهم في الدُّنيا مؤمنين، ثمَّ رَأَوْهم، وعليهم سِمَةُ الكُفر، وهُمُ المنافقون أوِ المرتدُّون أوْ مَنْ أحْدَثُوا في الدِّين ما ليس منه، أوْ هم أهلُ الكتابِ كفروا برسولِ اللّهِ ﷺ بعدَ إيمانِ أسلافهم، أو إيمانِ أنفسِهم به قبلَ مَبعَثِه ﷺ، والأَوْلى حَملُهُ على جميعِ من تقدَّم.

والْمُستفهِمُ سلَفُهم من قومِهم أو رسولِهم، فالاسْتفهامُ على حقيقتِه، وهو اسْتفهامٌ تَوْبيخيٌّ لهم وتعجُّبيٌّ من حالِهم[3]، ويمكن أن يكون الاستفهام إنكاريًّا توبيخيًّا والقائل لهم ملائكة العذاب.

وقولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: العذابَ المعهودَ الموصوفَ بالعِظَمِ للدَّلالةِ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/45.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/453 - 454.

أنَّ الأمرَ بذَوْقِ العذابِ على طريقةِ الإهانةِ مُترتِّبٌ على كُفرِهمُ المذكور، وذَوْقُ العذابِ مجازٌ للإحْساس[1]، حيث إنَّه استعارة تصريحيَّة شبَّه فيها إصابة العذاب لهم ودخولهم فيه بالذَّوق بجامع التَّمكُّن في الإحساس، أو شبَّه العذاب بالطَّعام الَّذي من شأنه أن يُذاق، فحذف المُشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وأسنده إلى العذاب على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة.

وقولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ صريحٌ في أنَّ نَفْسَ الذَّوْقِ مُعلَّلٌ بذلك.

ووردَ الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل، للدَّلالة على اسْتمرارِ كُفرِهم، أو على مُضيِّه في الدُّنيا[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّوق والإحْساس:

قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾: " الإحْساسُ: هو الشُّعورُ بالشَّيء، والإحْساسُ به، وكلُّ ما شَعَرتَ به فقدْ أَحْسَستَه، ومعناه: أَدْرَكْتَه بحسِّك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وقولِه سُبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسُف: 87]، أي: تعرَّفوا بإحْساسِكُم"[3].

والذَّوْقُ: هو إدراكُ الطُّعوم، واخْتبارُ الشَّيءِ من جهةِ التَّطعُّم.

حتَّى أنَّه اسْتُعمِلَ في بابِ المأكولاتِ وذوْقِها من بابِ المجاز، وكذلكَ اسْتُعمِلَ - كما هنا - مَجازًا في الإحْساسِ بالعذاب، مع الإطلاقِ الَّذي يُفيدُ فيما يَقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكثُر، فَخُصَّ بالذِّكرِ هنا لِيَعُمَّ الأَمْرَيْن، ولذلك كثُر اسْتعمالُه في العذابِ في آياتٍ عديدة، ومنها الآيةُ الَّتي معنا.

ثمَّ إنَّ الإحْساسَ أَثَرٌ للذَّوْق، وليسَ هو الذَّوْق، واسْتعمالُ الأصْلِ أَصْلٌ دونَ اسْتعمالِ فَرْعِه أوْ أَثَرِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 2/364.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23.

والْمَقامُ هنا مُقامُ تَهكُّمٍ وتَبْكيتٍ للكافرينَ الَّذين كذَّبوا دعوةَ الرُّسُل، وصَدُّوا عن سبيل اللّه، وسَدَروا في غَيِّهم، والَّذين اسودَّتْ وجوهُهم - كما سَوَّدوا صحائفَ أعمالِهم - فَلْيَذُوقوا العذابَ، كما كانوا يَذوقونَ الطَّعام، وشَتَّانَ بين هذا وذاك.

ولذلكَ كُلِّه كانَ استخدامُ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿فَذُوقُواْ﴾ أَوْقَعَ أَثَرًا، وأَقْوى دَلالةً من أيِّ فعلٍ يتعلَّقُ بمُجرَّدِ الإحْساس أو غَيرِه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»